أبو الفتح بن جني

وأثره في اللغة العربية

عصره ، مكانته العلمية ، آثاره

-٦-

الحالة العلمية في الموصل :

كانت ديار الموصل (حدياب) من ديار العلم العريقة في العراق من قبل الميلاد ، فقد كان سكانها القدماء من الارميين العرب الممتازين بثقافتهم وعلمهم ، وكانت لغتهم الارمية من أرقى اللغات وأدقها نحواً وصرفاً وبياناً وأدباً ، ولما ظهرت المسيحية اعتنق أهلها هذه الديانة ، وعرفوا منذ ذلك الحين بالسريان تمييزاً لهم عن الارميين الوثنيين [1] ، فقد ازدهرت الحضارة وارتقى العلم في الديار الموصلية بعد ظهور المسيح منذ القرن الثاني للميلاد الى ظهور الاسلام بل وبعده بقرنين ، وقد تغلغلت الآداب اليونانية فيها وامتزجت بالثقافة الارمية فتكونت ثقافة شرقية غربية مختارة ، وقد ترجم العلماء الارميون كثيراً من الكتب اليونانية الى لغتهم وبخاصة كتب الفلسفة وعلوم الأوائل ، وقد امتد نفوذ اللغة الارمية بثقافتها الواسعة الى العراق كله ، والى سورية ، وفلسطين ، ومصر وإيران .

وقد كانت مدن (حران) و (الرها) و (نصيبين) و (اربل) وسائر ديار الموصل الكبرى من المدن التي ازدهرت فيها اللغة الارمية والآداب الارمية ، كما ارتقت فيها الفلسفة والعلوم وكثرت فيها المدارس والمعاهد والمكتبات ،

(١) راجع تاريخ الموصل للقس سليمان الصائغ ٢ / ١٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واخذ الناس من بلاد فارس والشام ومصر يقصدون هذه المعاهد للتثقف والاطلاع على علوم الأوائل [١] .

ومما هو جدير بالذكر انه قد قام في ديار الموصل وإلى جوانبها عدة أديرة ومدارس نبغ فيها جمهرة كثيرة من الفلاسفة والحكماء والعلماء والمصنفين كمدرسة (بلد) ومدرسة (الرستاق) في مرگا [مرج الموصل] ومدرسة (بيت بغاش) ومدرسة (بيت عبناتا) وغيرها . يقول القس الصائغ مؤرخ الموصل : « ان باباي الجبيلتي الذي عاش في أوائل القرن الثامن للميلاد أسس في حدياب ـ أي بلاد المرصل ـ أربعاً وعشرين مدرسة ينوّه توما المرجي بذكرها واحدة فواحدة ، وينقل ان باباي أسس فيها ستين مدرسة في المدن والقرى الكبيرة ، وأقام لإدارتها ستين نابغة من المبرزين في العلوم وجعل لها أوقافاً وفية وسنّ لها القوانين والنظامات العجيبة فسمى المؤرخون الارمنيون ذلك العصر عصر الأستاذ باباي الجبيلتي ، ومن هذا يتضح أن بلاد الموصل كانت قبل الفتح الاسلامي راقية علمياً وعمراناً [٢] » .

ومن مشاهير العلماء والفلاسفة والمؤرخين الذين حفظ الدهر لنا اسماءهم من أهل حدياب :

الشاعر الفيلسوف الكبير نرمي (— ٥٠٢ م) وقد أسس عدة مدارس وقضى عمره في التدريس والتصنيف ونظم الشعر وقد بقي من آثاره نحو ٤٠٠ قصيدة مطولة في تفسير كتب الدين وفي علم الإلهيات والعقائد الدينية .

والكاتب الأديب النحوي ابرهيم النتفري الذي كان في أواسط المئة السادسة للميلاد والذي خلف آثاراً ورسائل في الأدب واللغة .

والفقيه المفسر حنانا الحدياني (— ٦١٠) وقد خلف آثاراً كثيرة في علوم

---

(١) راجع كتاب مدرسة نصيبين لأدّي شير . بيروت ١٩٠٥ .

(٢) راجع تاريخ الموصل للقس الصائغ ١ / ٩٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الدين والتشريع وتفسير الكتب السماوية ، والعقائد الإلهية ، وقد ضاعت أكثر آثاره هذه ولم يبق إلا عدد قليل من قصائده وتفسيره .

والفيلسوف النحوي يشوع ياب الجدلي البطريرك الذي عاش في أوائل المئة السابعة للميلاد والذي يروي عنه المؤرخون الارميون انه تشرف بمواجهة النبي العربي الكريم (ﷺ) فأنعم عليه بكتاب توصية بنصارى بلاده ، كما أنه حظي برؤية عمر بن الخطاب فأحسن اليه وأكرمه وقد خلف مصنفات معتبرة منها (شرح الزبور) وكتب عديدة في التاريخ والآداب وقد ضاع أكثرها ولم يبق منها إلا نتف محفوظة في المتحفة البريطانية .

والشاعر اسحق النينوي الشهير الذي عاش في أواخر المئة السابعة للميلاد وقد خلف مؤلفات كثيرة في النحو والأدب والتفسير والشعر ، نقل كثير منها الى العربية والحبشية واليونانية واللاتينية والايطالية والانكليزية وقد طبع ديوانه .

والكاتب الأديب يشوع ياب الحدياني (— ٦٦٠) وله آثار جليلة في اللغة والأدب ومن أجلها رسائله الأدبية البليغة التي طبعت قبل سنوات .

وقد كان لهؤلاء العلماء والكتاب والشعراء والفلاسفة أثر كبير في تثقيف سكان هاتيك الديار ، وفي رفع المستوى الثقافي في القطر الموصلي وجعله مركزاً من مراكز الاشعاع الثقافي في المشرق قبل الإسلام وبعده .

أما مدينة الموصل نفسها فقد كانت مدينة صغيرة قبل الإسلام تدعى بالارمية (حصنا عبرايا) ، وقد كان فيها بعض الأديار يأوي اليها رهبان من أهل العلم والفضيلة والدين مثل سائر الأديرة التي كانت منتشرة في هاتيك الديار ، ولما فتحها العرب في سنة ١٥ للهجرة سكنها بعض القبائل العربية فانتشرت فيها اللغة العربية وتزوج العرب من سكانها الأصليين الذين أخذوا يعتنقون الدين الإسلامي فقويت الروابط الأخوية بين الارميين وبين العرب الفاتحين ، وكان من أبرز القبائل العربية التي سكنتها بنو تغلب وكثير من بني طي وغيرهم من عرب اليمن ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعرب ربيعة ، ونبغ منهم في صدر الإسلام والعصر الأموي جمهرة من الأفاضل والشعراء وفي طليعتهم الأعشى التغلبي ، والنعمان بن معاوية الربعي النصراني ، وغيرهما من شعراء الدولة الأموية . ولما استخلف بنو العباس واتخذوا العراق مقرًّا لهم ازدهرت الحركة العلمية في العراق عامة وفي الموصل والبصرة وبغداد والكوفة خاصة .

وغدت الموصل في العصر العباسي من مدن العلم الكبرى التي ازدهرت فيها الحركة الدينية والأدبية واللغوية وتخرَّج من جامعها الأعظم وحلقاتها العلمية التي كانت في قصر الامارة (وفي قصور الوجوه وكبار القادة والأمراء) جمهرة من كبار رجال الدين والعربية والأدب والشعر نذكر منهم :

الإمام الجليل بكار بن شُريح (— ١٦٣) وهو الفقيه البارع الذي تولى قضاء الموصل فترة طويلة وكان مشهوداً له بالفضل والنبل ، وله آثار جليلة [١] .

ومنهم المعافى بن عمران الأزدي (— ١٨٥) ابو مسعود الموصلي الإمام الجليل المجتهد الذي كان يلقب بشيخ الجزيرة والديار الموصلية في عصره . وكان أحد الثقات وكبار حفاظ الحديث النبوي ومصنفيه وقد خلف للمكتبة العربية آثاراً جليلة تعتبر من أقدم ما صنف في الخزانة العربية من كتب السنن والزهد والأدب والتاريخ [٢] . وقد خلَّف المعافى ولداً نبغ في الموصل وخلَف أباه وكان من جلة شيوخ هذه المدينة وهو الشيخ عبد الكبير بن المعافى ومات سنة ٢٢١ هـ [٣] .

ومنهم الامام الزاهد سابق بن عبد الله الموصلي المتوفى في القرن الثاني للهجرة ، وكان من كبار الأئمة زهداً وعلماً وإصلاحاً ، وكانت له على الموصل وأهلها

---

(١) راجع تاريخ ابن الأثير ٦ / ٢٥ .
(٢) راجع تذكرة الحفاظ للذهبي ١ / ٢٦ وتاريخ ابن الأثير ٦ / ٦٧ .
(٣) راجع تاريخ ابن الأثير ٦ / ١٥٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أيادٍ في تهذيبهم وتوجيههم الى سبل الحق ودعوته إياهم بالحكمة والموعظة الحسنة [١] .

ومنهم الإمام الفقيه صفوان بن عيسى الموصلي (— ٢٠٠) وكان من كبار الفقهاء وأهل العلم بالحديث والسنن والأخبار وكانت له بجامع الموصل الأعظم حلقة كبرى يدرس فيها الفقه ويعظ الناس ويقرئهم الأدب والعربية والدين وهو من أقدم من عرف في الموصل من المؤدبين [٢] .

ومنهم الإمام المعافى بن داود الموصلي (— ٢٠٠) وكان من رجال الفقه والحديث وسائر علوم الدين ، كما كان من الزهاد الصالحين ، وكانت له حلقة في جامع الموصل وقد تخرج به جمهرة من أهل الموصل وحلب [٣] .

ومنهم المحدث المؤرخ الفقيه أبو يحيى ابرهيم بن موسى الزيات (— ٢٠٥) خرج من بلاده في سبيل العلم فجلس طويلاً الى المحدث المؤرخ التابعي الجليل هشام بن عروة عالم المدينة وكبير محدثيها ، وأفاد منه ثم رجع الى الموصل ينشر فيها العلم والدين [٣] .

ومنهم المحدث الإمام الفضل بن عبد الحميد الموصلي (— ٢٠٩) وكان من كبار حفاظ الحديث ورواته الثقات ، كما كان من أصحاب الأخلاق النبيلة ، وكان يعلّم ولا يأخذ على العلم أجراً وقد أفادت الموصل منه فوائد جليلة [٤] .

ومنهم الخليل بن أبي رافع جعفر بن محمد بن أبي يزيد المزني الموصلي (— ٢١٧) وكان من كبار علماء الموصل وعبّادها وأفاضلها ، وكذلك كان أبوه أبو رافع من العلماء الذين كان يشار اليهم بالبنان ، وبنو المزني هؤلاء من العلماء الأجلاء الذين أثروا آثاراً علمية واضحة في الموصل وأهلها في القرنين الثالث والرابع [٥] .

---

(١) راجع تاريخ ابن الأثير ٦ / ٧٧ .
(٢) راجع تاريخ ابن الأثير ٦ / ١٣١ .
(٣) راجع تاريخ ابن الأثير ٦ / ١٤٩ .
(٤) راجع تاريخ ابن الأثير ٦ / ١٥٩ .
(٥) راجع تاريخ ابن الأثير ٦ / ١٤٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومنهم الامام الجليل أبو هاشم محمد بن علي بن أبي خداش الموصلي (— ٢٢٣) وكان من العلماء الفحول الذين تخرجوا بالمعافى بن عمران وكان يقربه ويعتمد على فهمه وقد أفاد الناس فوائد كثيرة من أبي هاشم [١] .

ومنهم الامام المحدث الحافظ عبد الله بن يعقوب بن اسحق العطار التميمي (— ٢٧٥) وكان من أهل الحديث المكثرين ، وكان عند الحكام من المعدّلين [٢] .

وغير هؤلاء كثير من أئمة الدين الذين لو رحنا نعددهم لطال بنا التعداد .

أما أئمة البيان والشعر فنذكر في طليعتهم الأديبين الموسيقيين المشهورين ابرهيم بن ماهان المعروف بالنديم الموصلي ، وابنه اسحق بن ابرهيم الموصلي ، وكان ابرهيم من أهل الكوفة إلا أنه سكن الموصل طويلاً وأفاد من رجالاتها علماً وفضلاً ، ونبغ في الأدب والموسيقى حتى صار أوحد زمانه في هذين الفنين وبخاصة في الموسيقى والغناء ، فانه اخترع فيها ألحاناً وأصواتاً ، ولما تسامع أهل بغداد بصيته دعوه الى مدينتهم فقدمها ورحب به أهلها ، وأذن له الخلفاء أن يغني بحضرتهم ، وأول من سمعه منهم المهدي العباسي وكان الرشيد كثير العطف عليه الى أن مات في سنة ١٨٨ هـ فلما مات خلفه ابنه ابو محمد اسحق وكان من عجائب الدنيا أدباً وفضلاً ورواية ، عارفاً باللغة والتاريخ وعلوم الدين والكلام والفقه ، تفرد بمثل أبيه في صناعة الغناء وقد أحبه الرشيد وقرّبه ، ثم سمت مكانته عند الأمين والمأمون والواثق ، وكانت له مؤلفات أجلها كتاب أغانيه وأخبارها ، وكتاب أخبار عزة الميلاد المغنية ، وكتاب أغاني معبد ، وكتاب أخبار حمّاد عجرد ، وكتاب أخبار ذي الرمة ، وكتاب مواريث الحكماء ، وكتاب جواهر الحكماء وكتاب الرقص والزفن ، وكتاب الندماء ، وكتاب النغم

(١) راجع تاريخ ابن الأثير ٦ / ١٦١ .
(٢) راجع تاريخ ابن الأثير ٧ / ١٤٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ب ، وكتاب قيان الحجاز ، و كتاب النوادر المتخيّرة وغيرها من الكتب التي عدّدها ابن النديم وابن خلكان وياقوت في ترجمته [١] .

ومن أئمة الأدب والفن الموصليين ، الذين كان لهم أثر كبير في هذه المدنية الشاعر الأكبر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ، الذي استوطنها وقضى شطراً من عمره فيها ، الى جانب الأمير محمد بن حميد الطوسي - وقد طبقت شهرة أبي تمام الآفاق وأفاد العلماء والباحثون في درس أدبه وعلمه وشعره مما لا مجال له هنا . وقد كان لحميد الطوسي الطاهري القائد الأمير الفاضل حلقات أدبية في الموصل وكذلك كان ابنه أبو نهشل الذي اعتنى بأبي تمام حين مات وبنى على قبره قبة عالية خارج باب الميدان على حافة الخندق . وما يزال قبره معروفاً ومزوراً الى أيامنا هذه [٢] .

وأما في علوم الأوائل من طب وفلسفة وهندسة وفلك ورياضيات فقد ظلت الموصل بعد الاسلام محافظة على المستوى الذي كانت عليه قبل الاسلام ، وظل كثير من مدارسها القديمة الملحقة بكنائسها وأديارها يحفل بالعلماء والأطباء والفلاسفة والمناطقة ، وفي طليعة هؤلاء :

الفيلسوف يشوع بن نون (- ٨٢٧ م ، ٢١١ هـ) وكان من رجال دير مار ايليا الحيري المعروف بدير سعيد ، تلقى العلم فيه ونبغ في علوم الدين المسيحي ، وفي الفلسفة وفي الرياضيات وفي الموسيقى ، وأخذ قدره يسمو حتى بلغ رتبة البطركية . وقد خلف عدة آثار في الدين وأحوال الكنائس وتواريخها ، وكتباً في الموسيقى والألحان والشعر [٣] .

---

(١) راجع الفهرست لابن النديم ١ / ١٤١ ، وفهرست كتاب الأغاني ، ووفيات ابن خلكان .

(٢) حدثني الكاتب الموصلي البارع السيد وفائيل بطي ان الحكومة العراقية كانت قد نقلت رفات أبي تمام عقيب الاحتلال البريطاني للموصل الى حديقة البلدية حيث بنت له بناء فخماً تكريماً للشاعر وعبقريته .

(٣) تاريخ الموصل للقس الصائغ ٢ / ٤٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والطبيب الحكيم سابور بن سهل الخوزي (— ٢٥٥) وكان من كبار بلغ في الطب مكانة سامية حتى سمي رئيساً لمستشفى جنديسابور في خوزستان ونسب اليه . وقد خلف للخزانة العربية عدة كتب في الطب والصيدلة أجلها كتاب الاقرباذين الخوزي ، وهو الكتاب المعول عليه في البيمارستانات ودكاكين الصيادلة والعقارين [١] وكتاب الرد على حنين بن اسحق وكتاب القول في النوم واليقظة ، وكتاب موتى الأطعمة ومضارها وغير ذلك [٢] .

والطبيب العالم يوحنا (يحيى) بن ماسويه الخوزي (— ٢٤٣) وكان طبيباً حاذقاً بارعاً في فنه عالماً باللغات اليونانية والكلدانية والفارسية والعربية . وكان له فضل كبير على أهل الموصل ولما ذاع صيته استدعاه الرشيد الى بغداد وعهد اليه بالقيام على ترجمة ما أراد ترجمته من كتب القدماء في الطب والفلسفة مما استحصله من كتب اليونان والروم في أنقرة وعمورية وقد رتب له الرشيد كتّاباً وأمناء حاذقين بالصناعة يقومون بخدمته . ولما مات الرشيد واستخلف المأمون زادت مكانته وجعله الرئيس على دار الحكمة والترجمة وكان مجلسه في بغداد من أعمر مجالسها العلمية والفلسفية ، وكان الخلفاء منذ عهد الرشيد الى أن مات لا يتناولون شيئاً من الأدوية والعلاجات إلا بمشورته وبحضرته وقد خلف للخزانة العربية آثاراً جد قيمة من أجلها (كتاب الحمى) و (كتاب الجراحة) وقد طبعا ، وله بعض المخطوطات العربية والعبرية والارمية في الطب مثل (كتاب نوادر الطب) و (الأدوية المسهلة) و (كتاب الكمال والتمام) وغيرها من النفائس [٣] .

والشاعر الحكيم عمانوئيل برشهارى (— ٣٧٠ هـ ٩٨٠ م) وكان من رجال

---

(١) مختصر الدول لابن العبري ص ٢٥٥ .

(٢) طبقات الحكماء ١ / ١٦١ .

(٣) راجع بروكلمان G. A. L. الذيل ١ / ١٤٤ ومختصر الدول لابن العبري ٢٤٦ وطبقات الحكماء لابن أبي أصيبعة ، والفهرست لابن النديم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ديرمار جبرائيل بظاهر الموصل وكان شاعراً مجيداً بالارمية وديوانه (الاكساميرون) أي الأيام الستة من أجل دواوين الشعر الارمي وقد بقيت بعض أجزاء من هذا الديوان في خزائن الفاتيكان ولندن وبرلين وبعض خزائن كتب أديرة الموصل . وقد نشر العلامة القرداحي في كتابه الكنز الثمين بعض آثار عمانوئيل هذا [١] .

والأديب الكاتب يوحنا (يحيى) بن خلدون الصيّاري (— في أواسط القرن الرابع للهجرة والقرن العاشر للميلاد) وكان من رجالات دير بيت صيّارى ، بارعاً بالأدب والعلم ونحو اللغة الارمية ، وله نظم جيد وآثار جليلة في الآداب والتاريخ واللغات وله ديوان شعر مملوء بالحكم والأقوال الرائعة وقد نشر العلامة القرداحي بعض آثاره [٢] .

هؤلاء هم بعض العلماء والحكماء والفلاسفة الموصليين الذين نبغوا في الديار الموصلية ونشروا فيها العلم والحكمة والفلسفة قبل العصر الذي نبغ فيه مؤلفنا العبقري أبو الفتح بن جني الرومي الموصلي ، وهم كما ترى أئمة أعلام لم يتركوا ناحية من نواحي العلم والفلسفة والأدب والمنطق والطب والنحو والصرف وغيرها من علوم الأوائل إلا درسوها وبحثوا وصنفوا فيها ، فليس عجباً أن يكون العصر الذي نبغ فيه ابن جني عصراً مزدهراً بحركته العلمية بارزاً بنشاطه الثقافي مجلياً في حلبة التأليف والتصنيف ، والبحث والتدريس ؛ فلنقف وقفة طويلة أمام ذلك العصر ، ولنعرض الى دراسته والفحص في جنباته لنرى الأئمة والشيوخ الذي نبغوا في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ممن قد أفاد ابن جني من أدبهم أو درس عليهم مشافهةً أو إجازةً أو وساطةً :

***

(١) راجع الكنز الثمين طبع رومة سنة ١٨٧٥ ص ٦٨ - ٧١ .
(٢) راجع تاريخ الموصل للقس الصائغ ٢ / ٦٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نبغ في الموصل في القرنين الثالث والرابع جمهرة من كبار العلماء والشعراء والمصنفين أشرنا الى بعضهم في مقدمة هذا البحث ، وقد غدت الموصل محجة طلاب العلم في العالم الإسلامي في القرنين الرابع والخامس بعد بغداد والبصرة والكوفة وبخاصة في عصر بني حمدان الذين كانوا يجودون على العلماء بالعطاء الواسع ويحسنون الى كل من قصدهم من الشعراء والكتاب والفلاسفة والمصنفين . وكان على رأس بني حمدان في هذا المضمار سيف الدولة ، الذي شاد للأدب والعلم دولة رفيعة الأركان في الموصل ثم في حلب ، وأبو الهيجاء الأمير العالم الذي كان لا يقل عن سيف الدولة عناية بالعلم وأهله . يقول الثعالبي : « ورزقوا — أي أدباء هذا العصر وعلماؤه — ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء هم بقية العرب والمشغوفون بالأدب ، والمعروفون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد ، يحب الشعر وينتقده ، ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل فانبعثت القرائح في الإجادة وقادوا محاسن الكلام بألين زمام ، وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا ، وأكثرهم اشتهاراً في ذلك سيف الدولة فكان قصره بؤرة الأدباء ، ومنتدى العلماء والشعراء كالمتنبي شاعر عصره الفريد ، والفارابي الفيلسوف الكبير ، والموسيقي البارع وكان ملازماً لخدمته حتى مات وهو مسافر معه الى دمشق ، ثم الاصفهاني الذي قدم له كتابه الشهير في الأدب والموسيقى والتاريخ فأعطاه سيف الدولة جائزة عليه ألف دينار واعتذر اليه ...[1] »

وقد جمعت الموصل في عهد هؤلاء الملوك الأكارم نخبة صالحة من كبار الأئمة أمثال السريّ الرفّاء أبي الحسن بن احمد (— ٣٦٦) الشاعر العالم الموصلي الذي عاش في كنف بني حمدان في الموصل وحلب ، وكان مبدعاً في شعره وحكمته ، متفنناً في نظمه ونثره ، عطف عليه سيف الدولة وقرّبه حتى

(١) يتيمة الدهر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جعله من خواص خواصه فأقام عنده ، وكان عذب الألفاظ متقناً للتشبيهات بارعاً في التصوير ، وقد خلف آثاراً أدبية منها (ديوان شعره) ومنها (كتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب)[1] وكان الشاعران الأخوان الموصليان خازنا كتب سيف الدولة المعروفان بالخالديين ينابذانه ويخاصمانه وينافسانه فادّعى عليهما سرقة شعره وأوغر عليهما صدر سيف الدولة ثم انهما تمكنا من إقناع سيف الدولة بأنه هو الذي يسرق شعرهما ، فتغير عليه سيف الدولة وقطع رسمه من ديوان مجلسه ، واضطر السريّ أن يترك الموصل وحلب ويقصد بغداد لاجئاً ، إلى أن أدركه أجله .

ويظهر أن الخصومة بين السرّي الرفاء والخالديين قد تطورت فتناقل أخبارها أدباء الموصل ومؤرخوها وتفننوا في توسيع شقة الخلاف بين الطرفين لترويج سوق الأدب واحتدام الملاحم الشعرية . والمؤرخون يزعمون أن السرّي الرفاء كان ينسخ ديوان شعر كشاجم الشاعر المؤلف الموصلي الأديب الكبير ، ويدسّ فيه أشعار الخالديين ليزيد في حجمه فينفق سوقه ، ويشنع بذلك عليهما تأكيداً لما يدعيه عليهما من السرقات الشعرية ، وقد عقد الثعالبي فصلاً في اليتيمة لسرقات الخالديين وغاراتهما على شعره وشعر السريّ . وللسريّ في ذلك أقوال كثيرة منها ما يقوله في قصيدة يمدح بها الأمير أبا البركات بن ناصر الدولة الحمداني ، ويتظلم اليه من الخالديين ومن سرقتهما شعره :

يا أكرم الناس إلا أن بعدّ أبا ... فات الكرام بآباء وآثار
... أشكو إليك خليفيْ غارة شهرا ... سيف الشقاق على ديباج أفكاري
ذئبين لو ظفرا بالشعر في حرم ... لمزّقاه بأنياب وأظفار
ملاّ عليه سبوف البغي مصلتةً ... في جحفل من صنيع الظلم جرار

(١) راجع ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

... وكل مسفرة الألفاظ تحسبها صفيحة بين إشراق وإسفار
أرقت ماء شبابي في محاسنها حتى ترقرق فيها ماؤها الجاري
إن قلداك بدرٍ فهو من لجبي أو ختّماك ياقوت فأحجاري
وما رأي الناس سبياً قبل سبيهما بيعت نفيسته ظلماً بدينار
والله ما مدحا حيًّا ولا رثيا ميتاً ولا افتخرا إلاّ بأشعاري
لم يبق لي من قريض كان لي وزراً على الشدائد إلا ثقل أوزاري
أراه قد هتكت أشعار حرمته وسائر الشعر مستور بأستار
عار من النسب الوضاح منتسب في الخالديين بين العرّ والعار [1]

والخالديان هما أبو بكر محمد بن هاشم بن وعلة بن عُرام بن يزيد ، وأخوه أبو عثمان سعيد بن هاشم الموصليان الخالديان من بني عبد القيس ، وهما من سكان الخالدية وهي قرية من أعمال الموصل [2] .

ولم يذكر المترجمون من تاريخ ولادتهما إلا أن أكبرهما وهو أبو بكر مات سنة ٣٨٠ هـ وأصغرهما وهو أبو عثمان مات حوالي سنة ٤٠٠ هـ وكانا عالمين جليلين وشاعرين فحلين ، يشتركان في التحصيل والدراسة ، والتأليف ، فلما نبغا نبغا معاً وكانا لا يتفارقان كالتوأمين ، وكانا يشتركان في نظم الشعر فينسب اليهما معاً ، قال الثعالبي وكان يجمعهما « من أخوة الأدب مثل ما ينظمهما من أخوة النسب نهما في الموافقة والمساعدة يجريان بروح واحدة ، ويشتركان في قرض الشعر وينفردان ولا يكادان في الحضر والسفر يفترقان [3] » .

(١) راجع يتيمة الدهر ١ / ٤٥٣ ووفيات ابن خلكان ١ / ٢٠١ وفهرست ابن النديم ص ١٦٩ وخاص الخاص للثعالبي ص ١٢٠ .
(٢) راجع معجم البلدان (الخالدية) ومعجم الادباء ٤ / ٢٣٧ والوافي بالوفيات نسخة دار الكتب المصرية / تاريخ رقم ١٢١٩ ج ٤ / ٣١٤ ، ويتيمة الدهر ١ / ٤٧٤ وكشف الظنون ٧ / ٥٧٣ وفوات الوفيات ١ / ١٧٢ ، ٢ / ٢٧١ .
(٣) يتيمة الدهر ١ / ٥٠٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قصدا بلاط سيف الدولة في الموصل ثم في حلب فقرّبهما ، وجعلهما من خواصه وولاّهما خزانة كتبه . ولا نعلم بالضبط الوقت الذي انضما فيه الى بلاط سيف الدولة ، غير أننا نعلم أنهما حضرا مجالسه أيام اتصال المتنبي به ما بين سنتي ٣٢٧ و ٣٤٦ هـ[١] . ويقول أبو العلاء المعري في رسالة الغفران أنهما تركا بلاط سيف الدولة (على حد مغاضبته)[٢] الى بغداد لاجئين الى الوزير المهلبي الذي ناصرهما وساعدهما هو وأبو اسحق الصابي على خصمهما السريّ الرفاء .

وقد خلفا للخزانة العربية ديوان شعر ضخما ومؤلفات في الأدب أجلها (كتاب التحف والهدايا) الذي يعني الدكتور سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي بنشره و (كتاب حماسة المحدثين أو حماسة الخالديين) ولا نعرف له وجوداً وكتاب (أخبار الموصل) و (أخبار أبي تمام) وكتاب (أخبار أبي تمام ومحاسن شعره) وكتاب (اختيار شعر أبي عبادة البحتري) وكتاب (اختيار شعر ابن الرومي) وكتاب (اختيار شعر مسلم بن الوليد وأخباره) وكتاب (الديارات) وكتاب (اختيار شعر ابن المعتز والتنبيه على معانيه) و (ديوان الخباز البلدي) . وغير ذلك مما فقد[٣] .

وقد كان هذان الأخوان عجيبين في النظم وحسن التأليف ، مدحهما أبو اسحق الصابي وقال فيهما قصيدة طويلة منها :

أرى الشاعرين الخالديين سيّرا ... قصائد يفنى الدهر وهي تخلد
جواهر من أبكار لفظ وعونه ... يقصر عنها راجز ومقصد[٤]

---

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي (المطبوع على هامش شرح العكبري) مصر سنة ١٣٠٨ ج ١ / ١٧٣ .

(٢) رسالة الغفران . طبع أمين هندية ص ١٣٦ ، وطبع الكيلاني ص ٢٩ .

(٣) راجع الفهرست لابن النديم ص ١٦٩ ؛ والوافي بالوفيات طبع استانبول ١ / ٤٧ وكشف الظنون ١٩١/١ وخزانه الأدب ٣٩٦/٢ ومعجم الأدباء لياقوت ٢٠/٢ ووفيات ابن خلكان ١ / ٤٦ .

(٤) راجع اليتيمة ١ / ٥٠٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان أبو عثمان أحفظ من أخيه لعيون الشعر روى عنه ابن خلكان في ترجمته أنه كان يحفظ ألف سفر من الشعر وكل سفر مئة ورقة فمحفوظاته إذن كانت مئة ألف ورقة أو مئتي ألف صفحة ولو فرضنا أن في كل صفحة ثلاثين بيتاً من الشعر كان مجموع محفوظه ثلاثة ملايين بيت من الشعر[1] وقال عنهما ابن خلكان أيضاً (انهما كانا يغصبان الشعر صاحبه حياً كان أم ميتاً لا عجزاً منهما عن قول الشعر ولكن كذا كان طبعهما)، وقد ظلا بنظمان الشعر ويؤلفان في الأدب الى أن توفيا . وقد جمع أبو عثمان شعره وشعر أخيه في ديوان ضخم ولكنه فُقد ولم نعثر على ذكر له في إحدى خزائن العالم حتى ان العالم المستشرق المحقق متس لم يشر اليه . وقد ضاعت أكثر آثارهما كما أشرنا اليه ما خلا كتاب التحف والهدايا وكتاب الحماسة ويعرف أيضاً بكتاب الأشباه والنظائر وهو مجموعة مختارة من عيون الشعر الجاهلي والإسلامي على نمط حماسة أبي تمام وأبي عبادة ومنها نسخة في دار الكتب المصرية ونسخة في مدرسة حسين باشا الجليلي في الموصل[2] .

والأديب الشاعر العالم المصنف الطبيب أبو الفتح كشاجم محمود بن الحسين ابن السندي بن شاهك الرملي الموصلي وكان من كبار أئمة الأدب والشعر والفلك والتصنيف وقد شاع شعره في حياته في العالم الإسلامي حتى بلغ الأندلس والغرب وحاكاه شعراء عصره واقتبسوا منه وقد خلف ديواناً ضخماً وآثاراً عديدة منها كتاب (المصايد والمطارد) وهو أول ما صنف في فن الفروسية والصيد وأتى فيه بالمبدع الفائق، وكل من كتب بعده في هذا الفن أو البيزرة أو في علم الحيوان فهو عيال عليه أو مقتبس منه . وقد ظل هذا الكتاب

(١) راجع تاريخ الموصل للصايغ ٢/٦١ .

(٢) راجع فهرس مخطوطات الموصل لداود الجلبي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

النفيس مجهولاً يتناقل المؤلفون والأدباء أخباره الى أن عثرت عليه في بعض خزائن إيران ونشرته في بغداد مؤخراً [١] . وقد كان كشاجم من أعاجيب الدنيا في سعة اطلاعه وكثرة فضله وتعداد نواحي علمه ومعرفته حتى انه لقب نفسه بكشاجم وهو لقب انتزعه من الحروف الخمسة الأولى من كلمات (كاتب ، شاعر ، اديب ، جواد ، مصنف) وربما أضيفت اليها كلمة (طبيب) [٢] . وقد خلف كشاجم في الخزانة العربية عدا كتابي المصايد والمطارد والديوان ، كتاب أدب النديم أو لطائف الظرفاء وهو من أمتع كتب الأدب وهو مطبوع مشهور [٣] .

والشاعر أبو الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي النصيبي المشهور بالببغاء (— ٣٩٨) وكان شاعراً مكثراً مجوداً وكاتباً مترسلاً مليح الألفاظ جيد المعاني حسن القول في المديح والغزل والتشبيه والأوصاف . وقد ترجمه الخطيب في تاريخ بغداد وأثنى عليه وروى عنه بعض شعره عن طريق شيخه القاضي أبي القاسم علي بن المحسن التنوخي عن أبي الفرج [٤] ، وكان الببغاء من أئمة الأدب وعيون رجال الشعر والنثر وقد روى التنوخي عنه كثيراً من أخباره وأشعاره في كتابيه (نشوار المحاضرة) و (الفرج بعد الشدة) وكان من المعجبين به وبأدبه وبخلقه . وقد أطنب المرحوم الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني في القرن الرابع بأدب الببغاء وعدّه من بين الكتاب الذين غلب عليهم النثر « وكان لهم مع ذلك شعر جيد مثل الجرجاني علي بن عبد العزيز وأبي بكر الخوارزمي ، وأبي اسحق الصابي ، وبديع الزمان الهمذاني وأبي اسحق الحصري

(١) طبع في مطبعة دار اليقظة ببغداد بعنايتي وتحقيقي في سنة ١٩٥٤ .
(٢) راجع مقدمتنا لكتاب المصايد والمطارد ، ومجلة المجمع العلمي العراقي الجزء الثاني فقد ذكرناه في مقال مفصل .
(٣) وجع أيضاً شذرات الذهب لابن العماد ٣ / ٨٣ وزهر الآداب للحصري وبروكلمان G. A. L. الذيل ١ / ١٣٧ .
(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي طبع القاهرة ١١ / ١١ — ١٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

صاحب زهر الآداب فقد قال عنهم انهم ممن كانوا يجيدون الشعر إجادة تامة مع إجادتهم في النثر وان شعرهم كان رائعاً مثل نثرهم [١] » .

ومما قال عنه أيضاً « إنه نشأ في نصيبين ، واتصل بسيف الدولة فلما مات صاحبه تنقلت به الأحوال بين بغداد والموصل فنادم الملوك والرؤساء وقضى حياته بين النجاح والإخفاق بنعم تارةً ويشقى أخرى ، وكان البيغاء من أركان الحياة الأدبية في زمانه ولكن المؤلفين لم يتحدثوا عنه إلا قليلاً فكان من نتائج ذلك أن قلت المصادر التي تكفي لتعيين اتجاهاته الأدبية ... ومجموعة ماوصل الينا من شعره ورسائله وقصصه تدلنا على أنه لم يتصل بملوك زمانه على نحو ما كان يتصل الصاحب بن عباد أو أبو الفضل بن العميد وإنما كانت صلاته بهم عند الحدود الضيقة حدود السمر والأنس حول بساط السلاف وانا لنراه يدور حول شهواته وأغراضه النفسية في أكثر ما أثر عنه من المقطوعات والرسائل والأقاصيص ، أما شعره فتغلب عليه النزعة الوصفية وذلك يتصل بمذهبه في النثر أشد اتصال وهو وان لم يستطع مصاولة فحول القرن الرابع كالرضي والمتنبي وأبي فراس يبدع أحياناً ويروع حتى لنعده في طليعة الشعراء [٢] » .

وأما نثره فيمتاز بعدة مزايا أظهرها أنه يمثل عصره من الوجهة الفنية ويمثل الكاتب في ميوله الذوقية والوجدانية فهو من جهة الصورة نثر مسجوع تغلب عليه الفطرة حيناً ويسوده التكلف أحياناً وهو من جهة الموضوع يتصل في أكثر نواحيه بما يحس الكاتب من حيث هو رجل مودات ومجاملات . وقل أن يمثل صاحبه رجل فكرة اجتماعية أو فلسفية على نحو ما نجد عند بعض كتاب القرن الرابع ... هذا ولا ننسى أن نذكر فضل البيغاء في رسائله الاخوانية الكثيرة التي خلفها لنا ، وهي لا تقاس الى براعته في نثره المرسل الذي دبج به قصصه الغرامية وقد حفظ

(١) راجع النثر الفني ١ / ٢٧ ، ١٢٨ .
(٢) راجع النثر الفني ٢ / ٢٢٦ - ٢٣٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لنا الدهر منها شاهداً يعز على من رامه من أندى الكتاب قلماً وأسمامهم بياناً [١] .

والإمام الفقيه المحدث العالم أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلي (— ٣١٧) وكان من أئمة المحدثين وكبار حفاظ الحديث وهو صاحب المسند المعروف به والذي ظل يدرس في الموصل فترة طويلة وكان أهل الموصل يتبارکون به وبقراءته كما يحدثنا ابن خلكان [٢] .

وقد ترجمه الذهبي في تاريخ الإسلام وأثنى عليه وبيّن محامده وآثاره وعدد شيوخه ومن أفاد منه من كبار الأئمة وقال عنه : انه حافظ متقن وثقة مشهور ولقبه الذهبي بمحدث الموصل وقد عمر طويلاً حتى ناهز المئة ورحل الناس اليه من أبعد أصقاع الإسلام وله (مسندان) في الحديث أحدهما كبير والثاني صغير [٣] .

والجغرافي البلداني الأشهر أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل الموصلي البغدادي (— ٣٨٠) وكان من العلماء الرحالين البارعين في علم تخطيط البلدان وأصول التجارة طاف العالم القديم ودخل بلاد المغرب والأندلس وصقلية وغيرها من ديار الإسلام في أوربا وآسية وإفريقية منذ سنة ٣٣٠ هـ (٩٤٢ م) ودامت رحلته هذه ثماني وعشرين سنة وقد أحصى ذكر ما رآه في العالم من أخبار وعجائب ، وأطنب في ذكر البلاد التي زارها وصفاتها وأحوالها غير انه لم يضبط الأسماء وذكر الأطوال والأعراض ، ولم تخل رحلته هذه التي دونها في كتابه « المسالك والممالك » من الأغلاط لأنه أول رحالة مسلم عربي دوّن أخبار رحلاته هذه . وقد طُبع كتابه في ليدن سنة ١٨٧١ م . وترجم الى اللغات الفارسية والانكليزية والفرنسية ، والايطالية واللاتينية . ويعد ابن حوقل الموصلي من كبار الجغرافيين الذين كتبوا ما كتبوا بعد الفحص والتدقيق . وقد كان الجغرافيون قبله

---

(١) راجع النثر الفني ٢ / ٢٣٣ — ٢٤٢ وبروكلمان G. A. L. ١ / ٩٠ والذيل ١ / ١٤٥

(٢) راجع وفيات الاعيان ٢/ ٣٥٤ .

(٣) راجع تاريخ دول الإسلام للذهبي ١ / ١٤٦ والرسالة المستطرفة ص ٥٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يكتبون معلوماتهم نقلاً عن أفواه التجار أو يجمعون الأقاصيص والخرافات جمعاً دون تمحيص (١) .

والطبيب الفيلسوف الفقيه أبو جعفر أحمد بن محمد بن محمد بن أبي الأشعث (— ٣٦٥) وكان أصله من فارس إلا انه سمع بعناية بني حمدان بأهل العلم فقدم على الأمير ناصر الدين الحمداني فأكرمه وقربه واتخذه طبيبه فنال عنده مكانة سامية وأغدق عليه عطاياه وأقام بالموصل بعلم الطب والحكمة والفلسفة . وقد ترجم له ابن خلكان في الوفيات وأثنى عليه وذكر طرفاً من أخباره وعدد آثاره التي ألفها في علوم الطب والإلهيات والحيوان . وكان من أجل أعماله العلمية ترجمانه لكتب كثيرة من آثار جالينوس مع شرحها والتعليق عليها . وقد ترجم له ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء ومدح علمه وفضله وآثاره ، ويذكر بروكلمان أن من آثاره العديدة التي كتبها لم يبق إلا كتابه عن الحيوان وكتابه عن تفصيل جالينوس في الاسطقسات وشرحه على رسالة جالينوس في المزاج المختلف ، وكتاب الغاذي والمعتذي (٢) .

والأديب الفقيه المقرئ محمد بن الحسن بن زياد النقاش (٢٦٦ — ٣٥١) وكان من كبار الأئمة في علوم القرآن وقراءاته وتفسيره ، أقام بالموصل طويلاً يدرس علوم القرآن والعربية ثم رحل الى بغداد فأفاد الناس منه وقد خلف آثاراً عديدة أشهرها (شفاء الصدور) في التفسير و (الاشارة) في غريب القرآن و (الموضح) في معاني القرآن و (المعجم الكبير) في أسماء القراء وقراءاتهم و (المعجم الأوسط) في القراءات و (كتاب العقل) و (كتاب أخبار القصاص) و (كتاب ذم الحسد) و (كتاب دلائل النبوة) و (كتاب

---

(١) راجع دائرة المعارف للبستاني ، وكتاب آثار الأدهار للخوري وشحادة ١ / ١٩٧ واعلام الزركلي ص ٨٩٢ وقاموس الأعلام لشمس الدين سامي التركي .

(٢) راجع ابن خلكان ، وابن أبي أصيبعة ١ / ٢٤٥ وبروكلمان G. A. L ١ / ٢٣٧ والذيل / ٤٢٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إرم ذات العماد) و (المعجم الصغير في القراءات) . وقد ضاعت هذه الكتب كلها إلا قطعة من (شفاء الصدور) فانها موجودة في دار الكتب المصرية ، والمتحفة البريطانية و (كتاب الإشارة) فانه موجود في مدرسة الملا زكريا في الموصل [١] .

والشاعر الأديب الفحل أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد المخزومي السلامي (٣٣٦ — ٣٩٢) وهو من أهل بغداد إلا أنه نشأ في الموصل وسمت مكانته العلمية فيها. فأكرمه بنو حمدان وكانت حلقاته في الموصل حلقات علمية وله مناظرات مع أهل الموصل وأدبائها وأذكيائها وكان حين دخل الموصل صبياً ينظم الشعر فيتردد على حلقات أبي عثمان الخالدي وأبي الفرج البيغاء وأبي الحسن التلعفري وغيرهم وقد أعجبوا جميعاً بذكائه وفطنته [٢] .

وبعد فان هؤلاء هم أئمة العلم والدين والفلسفة والطب والحكمة والأدب والشعر في الموصل في الفترة التي نشأ فيها أبو الفتح بن جني . وهؤلاء هم الأئمة الفحول الذين كانت تلك الديار وأهلوها يكرعون من مناهل علمهم وفضلهم وأدبهم ولا ريب في أن أبا الفتح قد أفاد منهم إما مباشرة أو بالوساطة .

(للبحث صلة) الدكتور محمد أسعد طلس

(١) راجع ابن خلكان ومعجم الأدباء لياقوت وبروكلمان ١ / ٣٣٤ الذيل .
(٢) راجع أخباره في ابن خلكان ١ / ٢٩٨ ويتيمة الدهر ١ / ١٧٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net